مقاطع من رواية «حالة شغف» لنهاد سيريس

هذه مقاطع من رواية نُشرتْ في لبنان ومُنع تداولها في سوريا.

أصبحتْ وداد جاهزةً لتقدَّم إلى نساء حلب. لقد أصبحتْ تعي قيمةَ نفسها ومقدارَ جمالها ورقَّتها. أكثر من ذلك: تعلّمتْ كيف تُبْرِز كلَّ هذه الأمور بطبيعيّة، من دون زيادة أو نقصان. صارت تَعْرف كيف تتكلّم وتَضْحك وتَلمّ شعرَها المنفلت، وكيف تسير بالكعب العالي دون أن تقع، وكيف تَلْمس وجهَها دون أن تَنْزع غواها. هنا، في مجتمع حلب، سوف تلتقي بنساء أنيقات ومترفات، وغاوياتِ طربٍ وعشقٍ من الطبقة العليا: بنات باشوات وبيكوات وآغاوات وأفنديّة، زوجات تُجّار وأصحاب وِرَش صناعيّة وملاّك أراضٍ وموظّفين من الدرجة الممتازة. وقد تلتقي بزوجات المحافظ ورئيس البلديّة ورئيس غرفة الصناعة أو التجارة أو المستشارين الحكوميّين والقضاة ورؤساء المحاكم. من أجل ذلك كلّه، حرصت الخوجة بهيرة ألاّ تُخْرج وداد إلى الناس إلاّ وهي على أكمل وجه. أرادت بذلك أن تفجِّر قنبلتَها في وجوههنّ جميعًا وتقدِّمَ لهنّ أبلايتَها الجديدة.

كانت بهيرة قد حجزتْ حمّام «بلابان» لهذه الغاية، وأَرْسلت الدعوات إلى كلّ النسوة المهتمّات، خاصةً إلى كل امرأة مِنْ صاحبات المزاج. أمّا سعاد فقد اهتمّت بمكياج وداد، بينما هناك مَن اهتمّت بالأطعمة والحلويّات التي ستقدَّم في الحمام. ويبدو أنّ خبر وداد كان قد انتقل قبل ذلك بين النساء، ولاكت الألسنُ حكايةَ فتاةٍ خطيرة الجمال اتَّخذتْها الخوجة عشيقةً جديدةً لها. كان الفضول على أشدّه حين وصلت الدعواتُ لرؤية وداد. وفي الموعد المحدّد بدأت السيّاراتُ والعرباتُ الخاصّة والعامّة تصل إلى الحمّام حاملةً النسوةَ، حتى غصّت بها الطرقاتُ الواصلة إلى باب الحديد أو إلى مبنى السراي قرب القلعة، فاضطرّت الكثيراتُ للسير على الأقدام مسافاتٍ طويلة. كان من بين المدعوّات بعضُ الخوجات. ولا أريد لأحد أن يَسْتغرب إذا علم أنّ الخوجة سماح، منافسةَ بهيرة في الطرب وفي العشق، كانت من بين المدعوّات؛ فقد أرادت بهيرة أن تَحْضر لتُنذَرَ بأنّ وداد لبهيرة، وأنْ لا داعي لتعب القلب للحصول عليها أو لخطفها منها.

ـ إذن هذا هو السبب الذي دَفَعَ الخوجة بهيرة إلى إقامة الاستقبال، سألتُ الشيخ.

ـ بالضبط. الهدف هو إقامةُ حفلِ استقبال تُدعى إليه كلُّ الصديقات والصاحبات، وكنّ في غالبيتهنّ من بنات العشرة، وذلك لتقديم الأبلاية الجديدة غير المعروفة في الوسط كما هو الحال بالنسبة إلى وداد. وتقديمُ الأبلاية الجديدة وتعريفُ الوسط عليها يُشْبهان إعلانَ الخطوبة بين رجل وامرأة.

ـ وهل الحاضرات كنّ بالضرورة من الهوى نفسه؟

ـ على الأغلب، كانت هناك الكثيرات ممّن يخالطن بنات العشرة ولكنهنّ لسن منهنّ. كنّ يجدن في ذلك متعةً رغم عدم امتلاكهنّ لِزْديقة.

ـ زْديقة يعني صديقة، أليس كذلك؟

ـ نعم. وبالنسبة إلى الدعوة فإنّها توجَّه إلى الأبلاية وَزْديقتها. فأنت تراهنّ جالساتٍ اثنتيْن اثنتيْن.

ـ ولماذا في الحمّام؟ لماذا لم تدعوهنّ إلى بيتها؟

ـ جرت العادة أن تجري هذه الحفلات في حمّام السوق. ففي مثل هذه الأمكنة تجري الأمور بشكل طبيعيّ وبدون مضايقات الأطفال أو الأزواج الذين لم يكن الكثيرُ منهم يَعْرف أنّ زوجته ذاهبة إلى الحمّام لهدف آخر غير الاستحمام. وهناك سبب آخر ومهمّ بالنسبة إلى بنات العشرة: ففي الحمّام من الطبيعيّ أن تتجرَّد المرأةُ من بعض ثيابها أو منها كلّها وتلفّ نفسَها بمئزر. وهذا شيء مستحبّ لهنّ، لأنّ ذلك يسهّل عليهنّ القيامَ بالمداعبة والملامسة.

قلتُ للشيخ بلهفة:

ـ أكملْ من فضلك.

عندما وصلتْ عربةُ الخوجة بهيرة وصاحباتها إلى طرف سراي الحكومة كان الطريق من هناك حتى حمّام بلابان قد أُخْلي من العربات والسيّارات، فاستطاعت عربتُهنّ الاقترابَ حتى باب الحمّام. وما إنْ توقفتْ حتى هُرعتْ كلٌّ من سعاد وعائشة وفريدة إلى الداخل يَحْملن البقج وآلاتهنّ الموسيقيّة، بينما ظلت بهيرة ووداد في العربة في انتظار الإشارة لتتبعاهنّ.

كانت صالة الحمّام (البرّاني) ممتلئةً بالنسوة، جالساتٍ اثنتيْن اثنتيْن على المقاعد التي اصطُفّت على المصاطب أو على أرضيّاتها التي غُطِّيتْ بالبشاكير، وقد خَفَّفْنَ من ثيابهنّ أو تعرَّين ولففن أجسادهنّ بالمآزر. كانت هناك نساءٌ ذاتُ أسماء رفيعة، لها طنين ورنين خاصّان:

فضيلة خانم، زوجةُ نعمان بيك الذي ورث عن أبيه ستة آلاف هكتار وقصرًا واسعًا (قناق) في القرية حيث كان يقضي معظمَ أوقاته، على الرغم من كراهية فضيلة للقرية وغرامِها الخاصّ بالحياة في حلب وبزْديقتها وهيبة خانم؛ الستّ كريمة، زوجةُ نقيب المحامين الذي يَحلم بالوصول إلى المجلس النيابيّ؛ الستّ فدوى، زوجةُ الأستاذ ناظم الأديبِ والشاعرِ وأستاذِ الأدب العربيّ في مدارس حلب؛ أُمّ سعد الدين، زوجةُ رئيس مجلس الإدارة لشركة غزْل القطن والنسيج بحلب؛ زوجةُ قائمقام قضاء منبج؛ الستّ عديلة، زوجةُ المترجم الخاصّ للمفوّض السامي الفرنسيّ الكونت داميان دو مارتيل، وأبلايتُها فريزة التي طلقَّتْ زوجَها وهي تعيش في بيت اشترتْه لها أبلايتُها؛ سعديّة، زوجةُ رئيس تحرير مجلة **صوت الشمال**؛ أمّ عمر، زوجةُ الرئيس الفخريّ لنادي سورية الاجتماعيّ الذي يتفاخر بعلاقات زوجته بزوجة الوالي؛ سميّة، زوجةُ الوالي؛ أمينة خانم، زوجة رئيس جمعية أندية الأدب في حلب والخطيبِ المفوّهِ ضدّ الفرنسيّين ومعهم على السواء (حسب الظروف).

[...]

كنّ موحّداتٍ لا تفرِّق بينهنّ الثيابُ. فرحات، يثرثرن ويضحكن ويُغنّين ويميل بعضُهنّ على بعض ويلتصق بعضُهنّ ببعض. كلّ واحدة تدلّل صاحبتَها وتؤكّد محبتَها لها. أما عندما فَتَحت الحارسةُ البابَ وظهرتْ سعاد ورفيقتاها فقد ضجّ الحمّامُ بالزغاريد، وأصبح الأمرُ أكثرَ إثارةً. احتلّت النسوةُ الثلاثُ مكانهنّ المخصَّصَ إلى جانب رفيقتهنّ بهيّة عازفةِ العود البدينة، التي كانت قد سبقتهنّ، وبدأن بعزف مقطوعة على الموضة لعلي الدرويش. فتوقّعت النّساء أنّه قد حان موعدُ دخول الخوجة بهيرة مصطحِبةً معها اكتشافَها الجديدَ، فسُدِّدت الأعينُ إلى جهة الباب. ولم تمضِ دقائقُ حتى انفتح لتدلف الخوجة بهيرة وهي تُمْسك بيد وداد.

حدثَ الأمر بطريقة أقرب إلى السحر منه إلى الواقع. توقّف اللغوُ فجأةً وتوقفت الموسيقيّاتُ عن العزف، ولم يُسمع أيُّ تعليق، بل تابعت العيونُ المرأتين وهما تتّجهان نحو المكان المخصَّص لهما، وكان بالمناسبة مزيّنًا بالورود ومفروشًا بالأطلس. لم يَخْطر ببال إحداهنّ أن تزغرد، بل تجمّدن لا يأتين بحركة. كلُّ ما هنالك أنّ العيون كانت معلّقةً بوجه وداد الزائدِ الحلاوة الذي يَنْقط طفولةً وبراءة. حتّى إنّ أم سعد، وكانت بالمناسبة زوجةَ أكبر تجّار سوق الزرب، قد انفلتتْ عقدةُ مئزرها بينما كانت يدها تحيط بخصر أبلايتها «دلال» وكاد أن يَسْقط إلى الأرض كاشفًا عريَها الكاملَ (فقد كانت فضلّتْ، هي وزْديقتها دلال، أن تَخْلع كاملَ ثيابها وتلفّ جسدَها بمئزر كي لا تفوّتَ عليها فرصةَ التمتع بالملامسة في هذه المناسبة). ولكنّ أبلايتها شعرتْ به ينحسر عن نهديْها الممتلئين فأمسكتْ به وأعادت تثبيتَه حول جسدها دون أن تَشْعر بكلّ ذلك زوجةُ تاجر سوق الزرب.

شعرت الخوجة بهيرة بنشوة المنتصرات؛ فقد شاهدتِ الدهشةَ في عيون كلّ النساء المدعوّات. كان الصمت أكبرَ تعبيرٍ عن نجاحها. أما وداد فقد كانت تراقب بخجل: فلأول مرة تَعْرض جمالَها أمام كلّ هذه العيون الخبيرة في الجمال الأنثويّ ـ بناتِ العشرة اللواتي يَعْشقن جمالَ المرأة أكثرَ من الرجال، ويَحْتفلن بالمرأة الجميلة ويشتهينها. تلقّت قوةً معنويّةً من عينيْ سعاد ومن ابتسامتها، فنسيتْ حرجَها. وعندما جلستا في المكان المخصَّص لهما (كعروس وعريس) رفعت الخوجة بهيرة يدَها تشير إلى سعاد لكي تَصْدح الموسيقى.

عندها عادت النساءُ إلى رشدهنّ، وعدن إلى الثرثرة.

عُزفت الموسيقى من جديد، فلقي ذلك حمابسًا كبيرًا لدى النساء، فَرُحْن يزغردن عند كل مناسبة. ثم نهضتْ راحيل واقتربتْ من بهيرة ووداد، فقبّلتْهما وباركتْ لهما، ثم وقفتْ في منتصف الصالة وراحت ترقص. كانت تريد إظهارَ صداقتها لأبلايتها القديمة رغم كلِّ ما حدث، وأيضًا لوداد الوديعة التي لا ذَنْبَ لها إنْ هي أخذتْ مكانَها في سرير بهيرة. رقصتْ راحيل بفرح. راحت بهيرة تتابع رقصَها بصمت، ويدُها في يد وداد.

كانت راحيل بعد خروجها من بيت بهيرة قد انضمّت إلى فرقة الخوجة سماح. أصبحتْ ترقص في الحفلات التي تتعهّدها خوجتُها الجديدة. وعندما صارت حرةً دعتها سماح للعيش في بيتها الذي يقع في حيّ الجميلية بجانب محطّة القطارات. من أجلها تركتْ سماح أبلايتَها التي رحلتْ فور مجيء راحيل، فاحتلّت هذه مكانَها في غرفة نوم الخوجة الجميلة. لم يكن أحد يَحْزن على هجران النساء بعضهنّ بعضًا. إنّ ما كان يجري شبيهٌ بحركة انزياح خفيفة: كلّ واحدة تأخذ مكانَ الأخرى في حياة الأبلايات وفي غرف نومهنّ وأسرتهنّ. لم يكن الأمر يتسبّب إلاّ في شيء من الغيرة الموقّتة، وبعد ذلك ما تلبث أن تزول لتنغمس الحبيبة المهجورة في عشق جديد. وعندما صارت راحيل أبلايةَ سماح، حكت لها عن وداد وعن جمالها. للغرابة لم تكن راحيل تَكْره وداد، بل كانت تتحدث عنها وعن جمالها بكلّ حبّ. وبما أنّ سماح كانت تُعْتبر منافِسةً قويّةً لبهيرة، فقد راحت تسألها عن كل صغيرة وكبيرة تخصّ وداد: مَنْ تُشْبه، وكيف تبدو، وما هو لونُ شعرها وإنسانيْ عينيْها، وكيف تسير، وما هي مواهبها، إلى آخر ما هنالك. لقد تملّك عليها فضولُها، حتى إنّها حلمتْ مرةً بفتاة تُشْبه وداد. كلّ ذلك حصل دون أن تَشْعر راحيل بالغيرة. وعندما وصلت الدعوةُ إلى الحمّام من الخوجة بهيرة فرحتْ سماح لأنّ الفرصة سوف تَسْنح لها لمقابلة وداد. ومن أجل الدقّة أقول إنّ راحيل شعرتْ بشيء بسيط من غيرة عابرة عندما شاهدتْ سماح تتفحّص بعينيْها الخبيرتيْن وداد حين دخلتْ بصحبة بهيرة. ثم إنّ العديدات رحن يُلْقين على راحيل نظراتٍ متسائلةً عن حالها لأنهنّ كنّ يعلمن أنّ وداد قد أخذت مكانها عند بهيرة. من أجل ذلك، كما قلتُ، نهضتْ وهنّأت المرأتيْن ثم راحت ترقص لهما.

في مثل هذا الجوّ، وبعد الاستقرار الذي تمّ إثر عملية الانزياح (إزاحة عدة فتيات بعضهنّ لبعض على شكل سلسلة)، كان على الخوجة سماح أن تتصرّف بفروسيّة هي أيضًا؛ فقد كسبتْ راحيل، رغم شعورها بالغيرة لأنّ غريمتها تمتلك أبلايةً أجملَ منها. نهضتْ من مكانها، وأعادت لفّ المئزر على جسدها الأنثويّ الجميل (كانت متّكئةً في مكانها وقد أَرْخت مئزرَها كاشفةً عن ثدييها وفخذيْها الناصعتَي البياض، تتفرّج مرةً إلى وداد ومرةً إلى راحيل التي كانت تَرْقص على نحو غريب). التقطتْ صرّةً كانت قد أتت بها معها، وسارت نحو تخت غريمتها. حركة سماح أثارت جميعَ النساء؛ فقد كانت قصصُها مع بهيرة معروفةً للجميع. صعدت المصطبة واقتربتْ من بهيرة. قبّلتْ وجنتيْها، واحتضنتْها بتودد زائد، ثم سدّدت نحو وداد نظرةً قويّةً وقالت لها:

– أنا الخوجة سماح. ربما سمعتِ عنّي، وربما لم تسمعي بعد، ولكنّك ستسمعين الكثير ابتداءً من اليوم. هاتي أقبّلكِ.

قبّلتْها ثم احتضنتْها وحاولتْ شدّ جسدها أكثر إلى جسدها، ثم قبّلتْها في عنقها وابتعدتْ عنها. كلّ ذلك جرى تحت سمع وبصر الخوجة بهيرة وكلّ الموجودات. احمرّ وجهُ وداد ونظرتْ إلى بهيرة، التي غَمَزَتْها أنّ كلّ شيء على ما يرام. فضّت سماح صرّتَها الصغيرة وأخرجتْ عقدًا من الذهب المطعّم بالزمرد، ثم رفعته كي يراه الجميع. تحولتْ بعدئذ إلى خلف وداد وألبستْها العقد. قالت لهما «مبروك لكما،» ثم نزلت المصطبة عائدةً الى مكانها.

كانت راحيل قد شاهدتْ حركةَ سماح التي تجاوزتْ بها حدودَها مع وداد. فمن المفترض أنّهن يحتفلن بوداد وبهيرة، وهذا إعلان صريح عن العلاقة بحيث يحظَّر على الأخريات ابتداءً من الآن إقامة علاقة مع أيّ من الأبلايتيْن. كانت النسوة يثرثرن بصوت مسموع ومتداخل عمّا شاهدنه، حين مرّت سماح قرب راحيل. الآن توجّه انتباههنّ نحوهما ليشاهدا ردّ فعل راحيل؛ فغيرةُ بنات العشرة قاتلة. قطعتْ راحيل الدربَ على أبلايتها وهي ترقص رقصها الغريب، ثم راحت تتلوّى أمامها. كان جسدُها يلتوي كالحيّة، بينما يداها تسبحان كأنّهما أخطبوط. أصبحت تقرّب طرفَها العلويّ منها كأنّها تهاجمها، كأنها تريد أن تلسعها. كانت سماح واقفةً وقد أَسْندتْ يديْها على خصرها. كانت تَشْعر بغيرة راحيل وتتلذّذ بها. طال بهما الأمرُ على هذا المنوال. وماذا حصل؟ كل النساء كنّ في انتظار ما يمكن أن تفعله سماح بأبلايتها. أَمْسكتْ بها ثم شدّتها نحوها وأطبقتْ على شفتيها بقبلة طويلة جعلتْ حركات رقصها الغريب تهدأ ثم تَهْمد. زغردت النساءُ طويلاً يرحّبن بما تفعله سماح، التي ما لبثتْ أن انفكّتْ عن راحيل ثم قادتها إلى مصطبتهما...

حلب